كُفْرُ الذُّبابة[١]

قال كَلِيلة[٢] وهو يَعِظ دِمْنَةَ ، ويُحَذِّرُه ، ويَقضي حقَّ اللهِ فيه ؛ وكان دمنةُ قد داخلَه الغرورُ ، وزَهَاه النَّصر ، وظهر منه الجفاء ، والغِلْظة ، ولقي الثَّعالبُ من زيغه ، وإلحاده عَنَتاً شديداً :

. . . واعلم يا دِمنةُ ! أنَّ ما زعمتَه من رأيك تامّاً لا يعتَريه النَّقص ، هو بعينه النَّاقصُ ؛ الذي لم يتمَّ ، والغرورُ ؛ الذي تُثبت به : أنَّ رأيك صحيحٌ دون الآراء لعلَّه هو الذي يُثبت : أنَّ غيرَ رأيكِ في الآراء هو الصَّحيح .

ولو كان الأمرُ على ما يتخيَّلُ كلُّ ذي خيالٍ ؛ لصدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعم ، ولو صدَق كلُّ إنسان فيما يزعمُ ؛ لكذَب كلُّ إنسان ، وإنَّما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعضٍ ؛ ليجيء حقُّ الجميع من الجميع ، ويبقى الصَّغيرُ من الخطأ صغيراً ، فلا يكبر ، ويثبُتَ الكبيرُ من الصَّواب على موضعه ، فلا يُنْتَقَص ، ويصحَّ الصَّحيحُ ما دامت الشَّهادةُ له ، ويفسُدَ الفاسد ما دامت الشَّهادةُ عليه ، وما مَثَلُ هذا إلا مَثَلُ الأرنب ، والعُلماء .

قالَ دِمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا : أنَّ أرنباً سمعت العلماء يتكلَّمون في مصير هذه الدُّنيا ، ومتى يتأذَّنُ اللهُ بانقراضها ، كيف تكونُ القارعة ؛ فقالوا : إنَّ في النُّجوم نجوماً مُذَنَّبَةً ، لو التفَّ ذنَبُ أحدها على جِرْم أرضنا هذه ؛ لطارتْ هَوَاءً ؛ كأنَّها نفخةُ النَّافخ ، بل أضعف منها ، كأنَّها زَفرةُ صدرِ مريضٍ ، بل أوهى ، كأنَّها نَفْثَةٌ من شفتين . فقالت الأرنب : ما أجهلَكم أيُّها العلماء ! قد والله خَرِفتُم ، وتكَذَّبتم ، واستَحْمَقْتُم ؛ ولا تزالُ الأرضُ بخيرٍ مع ذَوَاتِ الأذناب ؛ والدَّليلُ على جهلكم هو هذا ـ قالوا : وأرتهم ذَنَبَها . . . !

---

(١) انظر : « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعي ، يعمد إليه حين يريد تقرير المعاني بالتمثيل ، والمحاورة . وانظر مقالة « فلسفة الطائشة » في الجزء الأول . (ع) .

قال كليلة : وكم من مغرورٍ يُنْزِلِ نفسَه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب من أولئك العلماء ؛ فيقول : كذَبوا ، وصدَقْتُ أنا ، وأخطؤوا جميعاً ، وأصبتُ ، والْتَبَس عليهم ، وانكشَف لي ، وهم زعموا ، وأنا المستَيْقن . ثُمَّ لا دليلَ له إلا مثلُ دليل الأرنب الخرقاء مِنْ هَنَةٍ تتحرَّك في ذنبها .

وكان يُقال : إنَّه لا يُجاهِرُ بالكفر في قومٍ إلا رجلٌ هانَ عليهم ، فلم يَعبؤوا به ، فهو الأذلُّ المستضعف ؛ أو رجلٌ هانوا عليه ، فلم يعبأ بهم ، فهو الأعزُّ الطَّاغية ؛ ذاك لا يخشونَه ، فيَدَعُونه لنفسه ، وعليه شهادةُ حُمقِه ، وهذا يخشونه فيتركون معارَضَتَه ، وعليه شهادةُ ظُلمه ؛ وما شرٌّ مِنْ هذا إلا هذا .

وقالت العلماء : إن كنتَ حاكماً تَشْنُقُ مَنْ يخالفُك في الرأي ؛ فليس في رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل ؛ وإن كنتَ تَقتل مَن يُنكر عليك الخطأ ؛ فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد ؛ وإن كنت تحبِسُ من يعارضُك بالنَّظر ؛ ففيك عقلٌ اسمه الجدار ؛ أمَّا إنْ كنتَ تُناظِرُ ، وتجادل ، وتقنِعُ ، وتقتنع ، وتدعو النَّاسَ على بَصيرةٍ ، ولا تأخذُهم بالعَمَى ؛ ففيك العقلُ الَّذي اسمه العقل .

* * *

قال كليلة : وأنا يا دِمنة ! فلو كنتُ قائداً مُطاعاً ، وأميراً مُتَّبَعاً ، لا يُعصَى لي أمر ، ولا يُردُّ عَلَيَّ رأيٌ ، ولا ينكر منِّي ما يُنكَر من المخلوق إذا أخطأ ، ولا يقال لي دائماً إلا إحدى الكلمتين : أصبتَ ، ثمَّ هي دائماً أصبت ؛ ولا يَلْقاني أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى ، رَهبةً من سَخَطي رَهْبَةَ الجُبَنَاء ، أو رغبةً في رضايَ رغبةَ المنافقين ، وزعموا : أنَّهم على ذلك قد صَحَّتْ نِيَّاتُهم ، وخلَصَ لي باطنُهم جميعاً ، فلو كنتُ ، وكانوا على هذا ؛ لأحالني نقصُهم إلى نقصِ العقلِ بعد كماله ، وردَّتني فُسولتُهم[1] إلى فُسولة الرَّأي بعد جَوْدته ، فأخْلِقْ بي أن أعتبرَ وضْعَهم إيايَ في موضع الآلهة ، هو إنزالَهم إيَّاي في منزلة الشَّياطين ؛ وإلا كنتُ حقيقاً أن يصيبني ما أصاب العَنْزَ ؛ التي زعموا لها : أنَّها أنْثى الفيل . . . .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

(١) « فسولتهم » : الفُسولة : قلَّة المروءة ، وضعف الرأي .

قال : زعموا : أنَّه كان في إحدى خرَائب الهند جماعةٌ من العَظَاء ، وكان فيها عَضْرَفُوطٌ كبير(١) ، فملَّكَتْهُ الجماعةُ ، وذهبتْ تأتَمِرُ على أمْرِه ، وتنتَهي . فمرَّ بهذه الخربةِ فيلٌ جسيمٌ من الفِيَلة الهنديةِ العظيمةِ ، لم يُحِسَّ بالعَظَاء ، ولم يميِّز فَرْقاً بين هذه الأمَّة من الحشرات وبين الحصى منثوراً يلْتَمِعُ في الأرض هنا ، وهنا ؛ قالوا : فغضب العَضْرَفُوطُ ، وكان قائداً عظيماً ، ثم تدبَّر أمْرَ الفيل ينظر : كيف يصنعُ في مدافعَتِه ؟ وكيف يحتال في هَلاكه ؟ فرآه لا يتحرَّكُ إلا بأقدامه ، يَنْقلُها واحدةً واحدةً ؛ فقدَّر عند نفسه : أنَّه لو أزال قدَمَ الفيل عن الأرض زال الفيلُ نفسُه ؛ فجاء فاعترضَ الطَّريقَ ، ودَبَّ دبيبه ؛ فلما رفع الفيلُ قدمَه اهْتَبلَ هذه الغَفْلَة منه . . . واندسَّ تحتها ، فاندسَّ مقبوراً في التُّراب !

ثُمَّ إنَّ العَظَاء افتقَدَتْ أميرها . فلمَّا مضى الفيلُ لسبيله ، ورأتْ ما نزل بها ، نَفَرَتْ إلى أجحارها ، واستكنَّتْ فيها ترتَقِبُ ، وتَتربَّص ، فدخلتْ إلى الخربة عَنْزٌ جعلت تتقمَّم منها ، وتَرْتَعُ فيها ، ورأتها العَظَاء فاجتمعنَ يأتَمِرْن . . .

فقال منها قائل : هذه أنثى الفيل . فسألتْ عَظَايةٌ منهنَّ : وأين النَّابان العظيمان ؟

قالت الأولى : إنَّ الإناثَ دون الذُّكورة في خَلْقها ، والأنثى هي الذَّكَرُ مقلوباً ، أو مختصراً ، أو مشوَّهاً ، ولذلك هنَّ يَقْلِبْنَ الحياةَ ، أو يختصرْنَها ، أو يشوِّهْنَها ، أفلا تَرين النَّابين العظيمين البارزين في ذلك الفيل الجسيم ، كيف نَبَتَا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه . . . ؟

فقالت واحدة : إن جاز قولُك في الرأي ؛ فأين الخُرْطوم ؟

قالت الأخرى : هو هذه الزَّنمةُ المتدلِّيةُ من حَلْقها ، وذلك خُرطومٌ على قدْرِ أنوثة الأنثى . . . ؟

قالوا : ثُمَّ اجتمع رأيُهن على أن يُمَلِّكن أنثى الفيل هذه ؛ وأن يهَبْنَ لها الخربَة ، وأُمَّتَها . وسمعت الماعِزَةُ كلامهنَّ ، فقالت في نفسها : لا جَرَمَ أنَّ تكونَ العنزُ فيلةً في أمَّةٍ من العَظَاء ، فقد قالت العلماء : إنَّه لا كبيرَ إلا بصغيرٍ ، ولا قويَّ

(١) « العظاء » : جمع عظاءة ، وعظاية ، وهي هذه الدُّويبة ؛ التي يُقال لها (السَّحلية) ، و« العضرفوط » : ضرب من العظاء ، يكون أكبر منها . (ع) .

إلا بضعيفٍ ، ولا طاغيةَ إلا بذليلٍ ؛ وإنَّ العظمةَ إن هي إلا شهادةُ الحقارةِ على نفسها ، وإنَّه رُبَّ عظيمٍ طاغيةٍ متجَبِّرٍ ما قام في النَّاس إلا كما تقومُ الحيلة ، ولا عاش إلا كما يعيشُ الكَذِب ، ولا حَكَمَ إلا كما يَحكم الخِداع . وهذه الدُّنيا للمحظوظ كأنَّها دنيا له وحدَه ، فمتى جاءت إليه ؛ فقد جاءت ، ولو أنَّها أدبرتْ عنه من ناحيةٍ ؛ لرجعت من ناحيةٍ أخرى ، ليثبتَ الحظُّ : أنَّه الحظ .

وتقدَّم العَظَاء إلى العنْز ، فقُلْن لها : أيَّتُها الفِيلةُ العظيمة ، إنَّ قَرينَكِ العظيمَ قد مسَّ أميرَنا العَضْرَفُوطَ بقدمه ، فغيَّبه تحت سبْعِ أَرَضِين ، وأنت أنثاه وسيِّدتُه ، فقد اخترناكِ مَلِكَةً علينا ، ووهبنا لك الخربَةَ ، وما فيها .

قالت العنْز : فإنِّي أتَّهِبُ منكنَّ هذه الهِبَة ، ونِعِمَّا صَنَعْتُنَّ ؛ غيرَ أنَّ بينكنَّ وبيني ما بين العَظَايَة والفيل ، وما بين الحصاةِ والجبل ، فإذا أنا قلتُ ؛ فأنا قلت ؛ وإذا أنا أمرتُ ؛ فأنا أمَرْت ؛ وإذا أنا فعلتُ ؛ فأنا فعلت . هنا في هذه الأمةِ كلِّها (أنا) واحدةٌ ليس معها غيرُها ؛ لأنَّ ها هنا في هذا الرأس دماغَ فِيلة ، وفي هذا الجسم قوةَ فيلة ، وفي الخرْبَةِ كلِّها فيلةٌ واحدةٌ ؛ فلا أعْرِفَنَّ منكنَّ على الصَّواب والخطأ إلا الطاعةَ طاعةَ الأعمى للبصير . ألا وإنَّ أوَّلَ الحقائق أنني فيلةٌ ، وأنكنَّ عَظَاء ؛ ومتى بدأ اليقينُ من هنا سقَطَ الخِلافُ من بينِنا ، وبَطلَ الاعتراضُ منكنَّ ، وقوَّتي حقٌّ ؛ لأنَّها قوَّة ، وباطلي كذلك حقٌّ ؛ لأنَّه من قوَّتي ؛ وقد قال أسلافُنا حكماء الفِيَلَة : إنَّ القويَّ بين الضُّعفاء مَشِيئةٌ مُطْلَقة ، فهو مُصْلِحٌ حتَّى بالإفساد ، حكيمٌ حتَّى بالحماقة ، إمامٌ حتَّى بالخرافة ، عالمٌ حتَّى بالجَهَالة ، نَبيٌّ حتَّى بالشَّعوذَة . . . !

قالوا : وتُنكِرُ عليها عَظَايَةٌ صالحةٌ عالمةٌ كانت ذاتَ رأيٍ ودينٍ في قومها ، وكنَّ يُسمِّينَها : (العِمامَة) ، لبياضِها ، وصلاحِها ، وطهارتِها ، فقالت : ولا كلُّ هذا أيتُها الفيلة ؛ لقد تَخرَّصْتِ غيرَ الحقِّ ؛ فإنَّك تحكمينا من أجْلِنا ، لا من أجلكِ ، وما قولُكِ إلا كلماتٌ تُحقِّقُها أعمالُنا نحن ؛ فَلَكِ الطَّاعةُ فيما يُصْلِحنا ، وما كان من غيره فهو رَدٌّ عليك ، ورأيُكِ شيءٌ ينبغي أن تكونَ معه آراؤنا ، لتتَبيَّنَ الأسبابُ أسبابُ الموافقةِ والمخالَفة ، فنأخذَ عن بيِّنَةٍ ، ونتركَ عن بيِّنة ؛ وقد كان يقال في قديم الحكمة : إنَّه يجب على مَن يقدِّم رأياً للأمَّةِ الحازِمةِ ؛ كي تأخذَ به ، أو يضَعُ لها شرعاً ؛ ليحْمِلَها عليه ، أو يَسنَّ لها سنَّةً ؛ لتتَّبعَها : إنَّه يجب على هذا المتقدِّمِ لتحويلِ الأمَّة ، أو تحريرِها أن يتقدَّم لأهل الشُّورَى وفي رأسه الرأيُ ، وفي عنقه

حَبْل ؛ ثم يتكلَّم برأيه ويَبْسُطه ، ويدْفعُ عنه ، ويجادلُهم ، ويجادلونه ؛ فإن كان الرأيُ حقاً ؛ أخذوا الرأي ، وإن كان باطلاً ؛ أخذوا الحبل ، فشنقوا فيه هذا المتهوِّر .

وفي ديننا : **أنَّ الطاعةَ في المعصية معصيةٌ أخرى** ؛ ولقد كان لنا عَضْرفُوطٌ بحَّاثَةٌ في الأديان دَرَّاسةٌ لكتُبها ، عَلاَّمَةٌ نَقَّابٌ ؛ فكان ممَّا علَّمنا : أنَّ المخلوقَ مبنيٌّ على النَّقص ؛ إذ هو ماضٍ إلى الفناء ، فيجب ألا يتمَّ منه شيءٌ إلا بمقدارٍ ، وألا تكونَ القوَّةُ فيه إلا بمقدار ؛ ولهذا كان العقلُ التَّامُّ في الأرض هو مجموع العقولِ العظيمة كلِّها ، وكان أتمُّ الآراء وأصحُّها ما أثبت الآراءُ نفسُها : أنَّه أصحُّها ، وأتمُّها . فلا الدِّينَ اتَّبعْتِ أيتها الفيلةُ ! ولا اتبعت فينا العقل ، وليس إلا هذا (التفيُّلُ) الكاذب !

فلما سمعت العنزُ ذلك تنقَّشَتْ[1] ، وغضبتْ ، وقالت : إيَّاكم وهذه التُّرَّهَاتِ من ألسنتكم ، وهذه الأباطيلَ في عقولكم ؛ لا أسْمَعَنَّ منكم كلمةَ الدِّين ، ولا كلمةَ الأنبياء ، ولا العَضَافيط . . . فذلك وحيٌ غيرُ وَحيي أنا ؛ وإذا كان غيرَ وحْيي أنا ؛ فأنا لستُ فيه ، وإذا لم أكن أنا فيه ؛ فهوَ لا يَصْلُح للحكم الذي شَرْطُه : أنَّ الدَّولةَ ليس فيها إلا أنا واحدةً . وذلك إن لم يجعلكم غُرَبَاءَ عنِّي ؛ جعلني غريبةً عنكم ، ما بُدَّ من إحدى الغُرْبتين ، فهو أوَّلُ القَطيعة ، والقطيعةُ أوَّلُ الفساد . وما دام في الدِّين أمرٌ غيرُ أمري ، ونَهْيٌ غيرُ نَهْيي ، وتحليلٌ ، وتحريمٌ لا يتغيَّران على مشيئتي ، فأنا مجنونةٌ ؛ إن رضيتُ لكم هذا . . . !

فضَحِكَت (العِمامة) وقالت للماعزة : بل قولي : أنا مجنونةٌ بِـ(أنا) ؛ أفلا يجوز وأنتِ خَلْقٌ من الخلْق أن يَعْتَرِيَ عقلَكِ شيءٌ ممَّا يعتري العقول ؟ ولسنا ننكر : أنَّك قويَّةُ الرأي في ناحية القوَّة ، حَسَنَةُ التَّدبير في ناحية الشَّجاعة ، متجاوزةُ المقدار في ناحية الحزْم ، والحرص على مصالح الدَّولة ؛ ولكن ألم يقل الحكماء : إنَّ الزِّيادةَ المُسْرفةَ في جهةٍ من العقل ، تأتي من النَّقصِ المتحيِّف لجهةٍ أخرى ؛ وإنه رُبَّ عقلٍ كان تامّاً عَبْقَرياً في أمورٍ ؛ لأنَّه ضعيفٌ أبلهُ في غيرها ؛ يُحْسِنُ في تلك ما لا يُحسِنُه أحدٌ ، ويُحكِمُ منها ما لا يُحْكِمه أحدٌ ، ثم يَغلَطُ في الأخرى ما لا يغلَط أحدٌ فيه ؟

---

(١) « تنقشت » : نقَّش الشيء : لوَّنه بالألوان .

قالوا : فجاشَتِ العنزُ وفارَتْ من الغضب فَوْرَةَ الجبَّار ، وخُيِّل إليها من عَمَى الغيظ : أنَّها ذهبتْ بين الأرض ، والسَّماء ، وأن زَنَمتَها امتدَّ منها خُرطومٌ طويل ، وأنَّ قرْنيها انْبَعَج منهما نابان عظيمان ؛ وقالت : ويْحَكم ! خذوا هذه (العمامة) فاشنقوها ؛ فإنَّها كما قالت ؛ تقدَّمتْ إلينا بالرأي ، والحبل . . . !

وكان في العَظَاء ضِعافٌ ، ومَهازيلُ ، وجُبناءُ ، ومأكولون لكلِّ آكل ؛ فتَشَبَّحَ[1] لهم : أنَّ أنثى الفيل هذه . . . سَتَخْلُقُهُم فِيَلَةً إن هم أطاعوها ؛ فإذا مَرَدُوا عليها ؛ فإنَّها من صرامة البأس بحيثُ تجعل كلَّ ظِلفٍ من أظلافها جبلاً فوقَهم كأنَّه ظُلَّةٌ ، فتَسُوخُ بهم الأرض . ثمَّ إنَّهم انْخزلوا ، وترَاجعوا ، وأُخِذَتِ (العمامةُ) الصَّالحةُ ، فشُنِقَتْ ، وخَمَدَ الرأيُ من بعدِها ، وانقطع الخلاف ، والدِّينُ ، والعقلُ الحرُّ . . . ؛ وأقبلت دولةُ العَظَاء على العنز تُجرِّرُ أذيالها .

قالوا : واغترَّت الماعِزةُ ، وأحسَّتْ لها وجوداً لم يكن ، وعرفتْ لنفسها ـ وهي ماعزةٌ ـ نَبَاهَةَ شأنِ الفيل القوِّي ، فَلَجَّتْ في عَمَايتها ، وكفرَتْ بجنسها ، وقالت : لم يخلقني الله فِيلةً ، وخلقْتُ نفسي ؛ فأنا ، لا هو . .

وثبتَ عندها : أنَّها ليست بعنْزٍ ، وإن أشبهتْها كلُّ عنزٍ في الدُّنيا ؛ وذهبتْ تقلِّد وتعيشُ على مذاهب الفِيَلة بين العَظَاء ؛ فإذا مشت ؛ ارتجَّتْ ، وتخطَّرَتْ كأنَّها بِناءٌ يتقلقل ، وإذا اضطجعت أنذرت الأرضَ أن تَتمسَّك لا تَدُكَّها بجنبها . . . !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخرابِ مرَّة أخرى ، فلاذَتِ العَظَاءُ كلُّهنَّ بالفِيلة . . . وتأهَّبتْ هذه للقتال ، وتحصَّفَتْ في المبارَزة ، والمناجَزة . . . (والمعانَزة) فنَصَبَتْ قرنيها ، وحرَّكتْ زنَمتَها ، وطأطأتْ ، وشدَّتْ أظلافَها في الأرض ، وثبَّتتْ قوائمها ، وصلَّبَتْ عظامَها ، ونفشتْ شعرَها ، وتَشَوَّكَتْ كالقُنفذ ، وأصرَّت بكلِّ ذلك إصرارها ، وكانت عنزاً نَطِيحةً منذ كانت تَتْبَعُ أمَّها ، وتتلوها ، فكيف بها وقد تفَيَّلَتْ . . . ؟

ثمَّ إنَّها ثبتتْ في طريق الفيل ليرى بعينيه هذا الهولَ الهائل . . فأقبَلَ ، فمدَّ خرطومَه ، فنالَها به ، فلفَّها فيه ، فقبَضَه ، فرفَعه ، فطوَّحَها ، فكأنَّما ذهبت في السَّماء . . !

---

(١) أي : خُيِّل إليهم ، وتمثَّل .

وتهارَبت العَظَاء ، ولُذْنَ بأجْحارهن ، ثمَّ غَدَوْنَ على رِزقهن ؛ فإذا جِيفةُ العنز غيرَ بعيدٍ ، فَدَبَبْنَ عليها ، وارتَعَيْنَ فيها ، وعَلِمْنَ : أنَّها كانت ماعِزَةً فَيَّلَها جنونُها ، وأدركن : أنَّ الكذبَ على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتلُه ، وأنَّ مَنْ غَلَبَ أُمَّةَ العَظَاء على أمرها ؛ فليست الأيَّامُ والليالي عَظاءً ، فيغلبَها ؛ وأن تغييرَ المخلوقات ، إنَّهما يكونُ بتحويل باطنها ، لا بتحويل ظاهرها ، وأنَّ الإناءَ الأحمر يُريكَ الماءَ محمرّاً ، والماءُ في نفسه لا حُمرةَ فيه ، حتَّى إذا انكسر الإناء ؛ ظهر كما هو في نفسه ؛ وكلُّ ما يُخفي الحقَّ هو كهذا الإناء : لون على الحقِّ ، لا فيه ؛ ثم أيقَنَّ : أنَّ محاولةَ إخراج أمَّةٍ كاملةٍ من نزَعاتِ ماعزةٍ مأفونةٍ[1] ، هي كمحاولةِ استيلادِ الفيلِ من الماعزة . . . !

* * *

قال كليلة : واعلم يا دمنة ! أنه لولا أنَّ هذه العنزَ الحمقاء قد كفرَتْ كُفْرَ الذُّبابة ؛ لما أَخَذَها اللهُ أَخْذَ الذُّبابة .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا : أنَّ ذبابةً سوداءَ كانت من حَمْقى الذُّبَّان ، قُدِرَتِ الحماقةُ عليها أبدِيَّةً ، فلو انقلبتْ نقطةَ حبرٍ في دَواةٍ ؛ لما كُتبتْ بها إلا كلمةُ سُخفٍ .

ووقعت هذه الذُّبابةُ على وجه امرأة زَنجيَّةٍ ضخْمةٍ ، فجعلتْ تقابلُ بين نفسها وبين المرأة ؛ وقالت : إنَّ هذا لَمن أدلِّ الدَّليل على أنَّ العالم فوضى لا نظام فيه ، وأنه مُرسَلٌ كيف يتَّفق على ما يتَّفق ، عَبَثاً في عبث ، ولا ريبَ : أنَّ الأنبياء قد كذَبوا النَّاس ؛ إذ كيف يستوي في الحكمة خَلْقي (أنا) وخلْقُ هذه الذُّبابة الضَّخمةِ التي أنا فوقَها . . . ؟

ثُمَّ نظرت ليلةً في السَّماء ، فأبصرت نجومَها يتلألأنَ وبينها القمر ؛ فقالت : وهذا دليلٌ آخر على ما تحقَّق عندي من فَوضى العالم ، وكذِب الأديان ، وعَبثِ المصادَفات ؛ فما الإيمانُ بعيْنه إلا الإلحادُ بعينه ، ووَضْع العقلِ في شيءٍ هو إيجادُ الألوهيَّة فيه ، وإلا فكيف يستوي في الحكمة وضعي (أنا) في الأرض ورفعُ هذا

(١) « مأفونة » : المأفون : ضعيف الرأي والعقل .

الذُّبَّانِ الأبيض ويَعْسُوبِه الكبير[1] إلى السَّماء . . ؟

ثم إنَّها وقعتْ في دار فلاَّحٍ ، فجعلت تمورُ فيها ذهاباً ، وجِيئةً ، حتَّى رجعت بقرةُ الفلاَّح من مَرعاها ، فبُهتت الذُّبابةُ ، وجمدَت على غُرَّتها من أوَّل النَّهار إلى آخره ، كأنَّها تُزاوِلُ عملاً ؛ فلمَّا أمْست ، قالت : وهذا دليلٌ أكبرُ الدَّليل على فَوضى الأرزاق في الدُّنيا ، فهاتان ذبابتان قد ثَقبتَا ثُقْبين في وجه هذه البقرة . . واكْتنَّتا فيهما تأكلان من شَحمها ، فتَعْظُمان سِمَناً ؛ والنَّاسُ من جهلهم بالعلم الذُّبانيِّ يسمُّونهما عينين . . . وأنا قضيتُ اليومَ كلَّه أخمِشُ وأعضُّ وألْسَع لأثقُبَ لي ثقباً مثلَهما فما انتزعتُ شعرةً ؛ فهل يستوي في الحكمة رزقي (أنا) ورزقُ هاتين الذُّبابتين في وجه البقرة . . . ؟

ثُمَّ إنَّها رأت خُنْفُسَاء تَدِبُّ دبيبَها في الأرواث ، والأقذار ؛ فنظرت إليها ، وقالت : هذه لا تَصْلُح دليلاً على الكفر ؛ فإنِّي (أنا) خيرٌ منها ؛ (أنا) لي أجنحة ، وليس لها ، (وأنا) خفيفةٌ ، وهي ثقيلةٌ ؛ وما كأنَّها إلا ذبابةٌ قديمةٌ من ذُباب القرون الأولى ، ذلك الَّذي كان بليداً لا يتحرَّكُ ، فلم تجعل له الحركةُ جَناحاً[2] . ثُمَّ إنَّها أصْغَتْ ، فسمعت الخنفساء تقولُ لأخرى وهي تحاورها : إذا لم يجد المخلوقُ : أنَّه كما يشتهي ؛ فليكْفُرْ ، كما يشتهي ؛ يا وَيحنا ! لِمَ لمْ نكن جاموساً كهذا الجاموس العظيم ، وما بيننا وبينه فرق إلا أنَّه وَجَدَ من يَنْفُخُه ، ولم نجد . . . ؟

فقالت الذُّبابة : إنَّ هذا دليلُ العقلِ في هذه العاقلة ، ولَعمري إنَّها لا تمشي متَّاقِلَةً من أنَّها بطيئةٌ مُرهَقَةٌ بعَجْزها ، ولكن من أنَّها وَقُورٌ مثقَلَةٌ بأفكارها ، وهي الدَّليلُ على أنِّي (أنا) السَّابقةُ إلى كشف الحقيقة . . . !

وجَعلت الذُّبابةُ لا يُسْمعُ من دَنْدَنتِها إلا : أنا ، أنا ، أنا ، أنا . . . من كُفْر إلى كفر غيره ، إلى كفرِ غيرِهما ؛ حتى كأنَّ السَّموات كلَّها أصبحتْ في معركةٍ مع ذبابةٍ . . . .

---

(١) « اليعسوب » : أمير النحل ، والذبان ، ونحوهما ، خُيِّل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض . (ع) .

(٢) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو ، كما زعموا . (ع) .

ثُمَّ جاءت الحقيقةُ إلى هذا الإلحاد الأحمق تَسعى سَعْيَها ؛ فبينا الذُّبابةُ على وجه حائط ، وقد أكلت بعوضةً ، أو بعوضتين ، وأعجبتْها نفسُها ، فوقفت تحكُّ ذراعَها بذراعها ـ دَنتْ بَطةٌ صغيرةٌ قد انفلقتْ عنها البَيضةُ أمس ، فمدَّتْ مِنقارها ، فالتقطتها .

ولما انطبق المِنقارُ عليها ؛ قالت : آمنتُ : أنَّه لا إله إلا الَّذي خَلَق البطَّة . . . !

* * *